الثورة ALTHAWRAH
Monday : 29 Moharam 1435 - 2 December - Jssue No. 17910

دروز بلغراد رواية جحيم متخيل

• محمد الغربي عمران

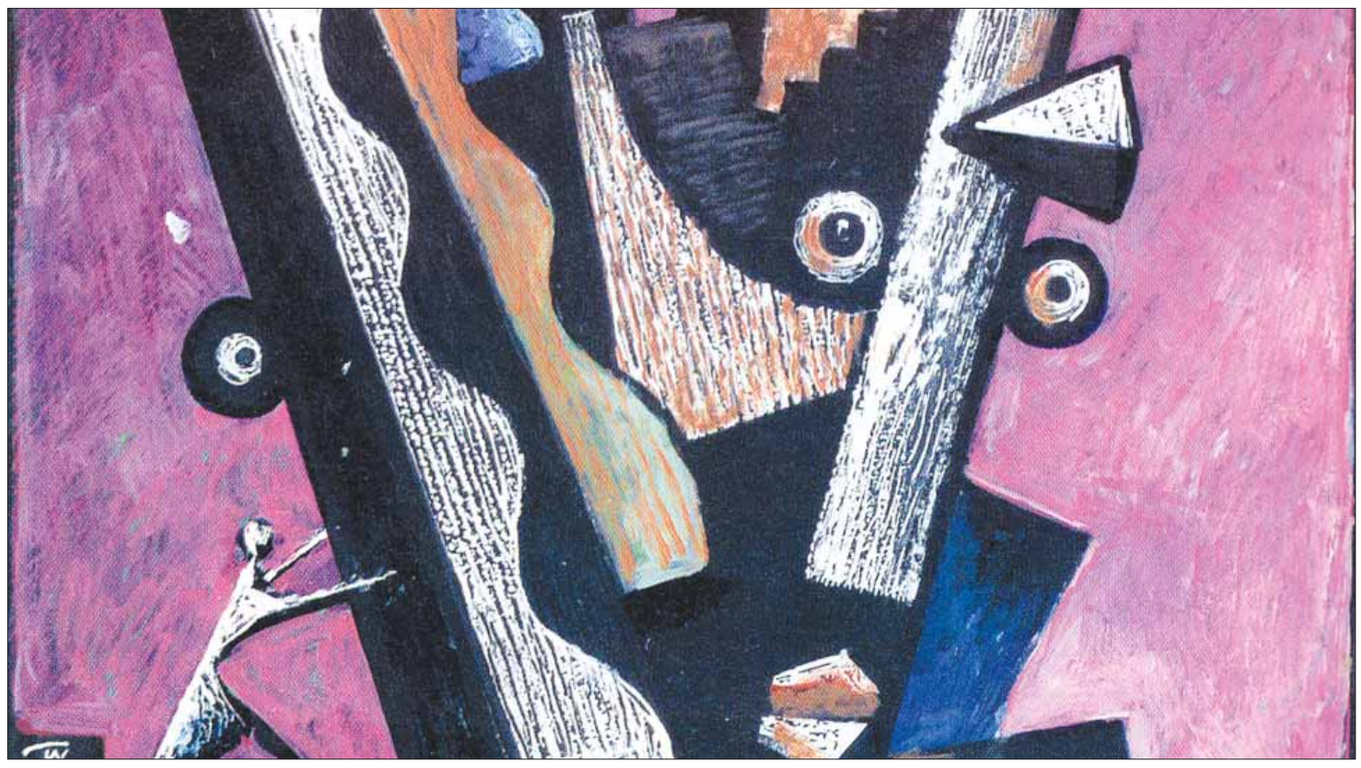

الرواية الثانية التي أقرأها للروائي اللبناني ربيع جابر, بعد روايته الرائعة أميركا التي روى فيها بداية موجات المغتربين الشوام إلى العالم الجديد. ولربيع أكثر من أربع عشرة رواية .

(دروز بلغراد ,حكاية حنا يعقوب) الرواية الأحدث له ,وهي الرواية التي وصلت إلى القائمة القصيرة لجائزة البوكر العربية , لدورة عام 2012. وقد صدرت عن دار الآداب بالاشتراك مع المركز الثقافي العربي. في طبعتها الثالثة.

الراوي أورد أكثر من عشرة مراجع اعتمد عليها في دراسة أحداث الفترة الزمنية التي عالجها في روايته من 1860 إلى 1872.

ثم إنه نوه في الصفحة السابعة من الرواية إلى أن الرواية من نسج الخيال, وإن أي تشابه بين أشخاص الرواية وأحداثها وأمكنتها مع أي كان فإن ذلك مجرد مصادفة.

الرواية في مجملها محاكمة للظلم والتسلط الإنساني ممثل بالسلطنة العثمانية ونظامها. لكنها ومعا نهاية الرواية لا تعني للقارئ ذلك. قد يتبادر إلى ذهن القارئ وهو يقرأ كل تلك الفظاعات أن تلك الدولة متوحشة , إلا أني أرى بأن كل زمن له وجهه الحالك والبغيض وذلك نتاج تطور الوعي البشري, ولا يمكن اسقاط مفاهيمنا المعاصرة على أي زمن غابر, فوعي مجتمعات ذلك الزمان ومفاهيم نخبها للظلم والقسوة والعدالة والمساواة, يختلف عما يعيشه العقل البشري, وغداً سيقرأ أحفادنا مانعيشه اليوم متبرمين مما صنعناه من فظاعات من وجهة وعيهم.

رواية أشبه بملحمة تمجيد العنف والظلم، تدور من بدايتها وبشكل لولبي تصاعدي في عمود يطول ويطول من الغبن والسحق والعسف.

فحين كانت الإمبراطورية العثمانية تمتد على مساحة فوق ثلاث قارات من أواسط أوروبا إلى كل شمال إفريقيا وأطراف الجزيرة العربية وبلاد الهلال الخصيب. يساق البشر وقود للحروب بين قارات العالم في سباق محموم للسيطرة علية وتقسيمه بين دول أوربا , ويبرر كل ذلك تحت شعارات التحديث والتنوير, كما هي اليوم شعارات حقوق الإنسان والديمقراطية... الخ تلك الذرائع التي تبيح لهم استغفال الشعوب , بينما الأصل هي المصلحة والاستغلال .

حنا يعقوب بائع البيض المسلوق كان في المكان الصحيح والزمان الصحيح لإتمام صفقة ناجحة بين أب درزي يسعى لفك أسر أبنائه مقابل الكثير من المال, لكنه ينجح بالعودة بأحدهم ليقاد حنا بدلا عن ذلك الولد.

ويساق مع عشرات الدروز المتهمين بالاشتراك في قتال مسيحيي جبل لبنان , تحت ضغط فرنسي حلفاء مسيحيي الجبل, ويتغير أسمه من حنا يعقوب إلى سليمان عفار عز الدين.

ضربه الجنود واقتادوه إلى ظهر المركب لتكملة العدد الذي غادر ميناء بيروت ولم يتوقف إلى في أحد مدن الهرسك الساحلية, مخلفا هيلانة زوجته وطفلته الصغيرة بربارة,ليتعرف على خمسة أشقاء يحملون نفس اسم عفار عز الدين من دروز الجبل.

لم يكن ليتوقع أن يستمر نفيه اثنتى عشرة سنة وهو الذي لا يعرف لماذا ضربه العسكر في المينا ولا لما ينفى بعيدا عن مدينته , لتتوزع سنواته اثنتى عشرة بين سجون البوسنة والهرسك وبلغراد وحتى ضفاف الدانوب في قلعة الجبل الأسود ومقدونيا وهنغاريا.. هناك حيث يسخرونهم لرصف الطرق وبناء الأسوار المجابهة لمجتمعات في حروب دائمة مع الهلال العثماني, لم تكن الحياة طبيعية حيث كان الآلاف يحجزون في أقبية تحت الأرض لشهور , وعند أي عقاب يفصل المعاقب ليوضع في بئر أو أخاديد منقورة في باطن الأرض, ليموت البعض من الجوع أو العطش أو الاختناق , وأحيانا ينسوا بعضهم تحت الارض فينفق بعضهم ويجن البعض, وفي أحيان يساقون مقيدين جماعيا لتنفيذ أعمال البناء وتسوية الأرض أو رصف الطرق في طقس قاس بين عواصف الأمطار والثلوج فيتجمد منهم أعداد ويتركوا ليواجهوا موت الزمهرير.

أن يعيش رجلاً في الأسر اثنتي عشرة سنة بدلاً عن آخر ولا يستطيع أن يخبر ساجنيه فهذا غير منطقي, خاصة وأن الكتابي لم يكن مكلفاً بحمل السلاح في نظام السلطنة العثمانية, أن يظل شخص يتأرجح بين الحياة والموت من شدة الطقس وقسوة المعاملة ونقص الغذاء ولا يفصح عن هويته , التي بمجرد الإفصاح عنها سيعاد إلى بلاده , ما ظل يلح عليّ ذلك السؤال إلا إذا كان أبكم وحنا لم يكن أبكم.أو أهبل لا يعي ما يعانيه.

من الناحية الموضوعية أراد الكاتب أن يعيش القارئ في زمن غير زماننا بأدوات غير منطقية ,صحيح أن أمماً كثيرة قد مارست ما لا يتقبله عقل, لكن في موضوع هذه الرواية التي كرسها عن آخرها في ترديد تلك الفظاعات وتكرار وصفها حتى أن القارئ يبدأ برفض ذلك التكريس والتكرار , عذاب من أجل العذاب, فلا يوجد الدافع لكل ذلك العذاب خاصة بعد أن طالت سنوات النفي ولم يعد يعرف أحد ما هي تهمة حنا, بل في الأيام الأخيرة لم يعد أحد يعرف ما هي هويته , تعذيب وكأن أولئك الخلق زبانية جهنم , قدموا من صخور جوفاء لا يفهمون ولا يحبون أن يفهموا.بل يصل بك أن تتخيل ذلك المجتمع لا يعيش إلا ليعذب سواه.

الجانب الفني: استطاع الكاتب بأسلوبه التقليدي أن يسيطر على ذهنية القارئ الذي يبحث عن خلاص يوحنا ومن حوله من دروز الجبل الذين مات أكثرهم جراء سوء الطقس والجوع والأعمال الشاقة , وقد سيطرت حالة يوحنا غير الإنسانية والتي تمارس عليه شتى صنوف التعذيب الذي لا يحتملها حتى الحيوان على ذهني وأنا أتوغل صفحة بعد صفحة حتى النهاية.

وأسلوب الكاتب هو في السرد التصاعدي لأحداث مزمنة بشكل طبيعي, وبأسلوب الراوي العليم. فلم يستخدم أسلوباً إغوائياً حكائياً أو يغامر في تعدد الأصوات , أو في استرجاع أحداث مضت. فقط ظل من بداية الرواية وحتى نهايتها في خط زمني للأحداث .

فقط كان للرواية مساران حالة يوحنا في المنفى ومن معه من الدروز من سجن إلى آخر ومن بلاد إلى أخرى يسوقونهم مسخرين للأعمال الشاقة. ومسار ثان لحالة زوجته هيلانة وابنته بعد أن فقده دون معرفه مصيره وإن ظلت الأخبار تتردد عن مقتله كونه مسيحياً بيد مسلمين .

حتى يأتينا الكاتب بنهاية نجاح حنا في الهرب بعد عدة محاولات فاشلة, يلتقي براع مقدوني , يحسبه أحد الدراويش الذاهبين للحج, يعرف الصبي بنفسه ويخبره أن جده ذهب للحج, ويمنحه جلداً مدبوغاً كي يستر نفسه وعصاه يتوكأ بها ثم يشير عليه إلى أفق مدينة تبدو بمآذنها المثلثة , يحثه الحاق حيث سينطلق ركب الحجيج إلى مدن عدة صوفيا وبلوفدف وادرنة واسطنبول وعبر الأناضول إلى دمشق ثم إلى مكة.

وبالفعل سار حتى تلك المدينة ليلتحق بحملة كبيرة باسم الحاج سليمان, يأكل معهم ويركب معهم, وينتقل لعدة أسابيع عبر مدن عديدة يلتحق منها الحجيج حتى دمشق وهناك ينسلخ عنهم ليتجه إلى مدينته بيروت , يدخل بيته المجاور لكنيسة مار الياس يرى ابنته ويتعجب حين يرى ابنته فيحسبها زوجته هيلانة ويتعجب أنها لم تكبر, لكنه يدرك أنها ابنته حين ترفع البنت صوتها منادية لأمها أن تأتي لترى ذلك الدرويش, لتصرخ هيلانة عند رؤيته :حنا.. هذا أنت!!

عندها يستلقي أرضا وقد جثت فوقه زوجته باكية ثم ابنته . وعندها يتوقف السرد.

رواية لكاتب متمرس, أورد بها الكثير من أسماء المدن الأوربية والقوميات والأنهر والجبال والقلاع ما يوحي بأنه لم يكتب هذا العمل إلا بعد تحضير واطلاع وجمع معلومات دقيقة.

الطعنةُ الأم

• عبدالعزيز الزراعي

يا موطني يا طعنتي الأولى
ويا وجعي الأنيقُ
حمَّلْتَني ما لا أطيقُ أنا
و لا لغتي تطيقُ
فالبس فؤادي جبةً
بعريِّ أهلِكَ لا تضيقُ
واخلعْ وراءَكَ ما تَسَاقطَ من تضاريسِ الغزاةِ
فإنها بكَ لا تليقُ
دعْ كلِّ شيءٍ،
وانتبهْ لفمي
فإن فمي الطريقُ
أنا لن أصبِّ عليك ثرثرتي
أنا – يا سيدي- صمتٌ عريقُ
متخثرٌ في جرةِ التاريخِ ..
لي في كل خارطة بريقُ
أحتجُّ منذُ ولادتي الأولى
على المعنى
فيندلع الحريقُ
وأهبُّ منذ الغيمة الأولى
على مائي
فتشتعل البروقُ
وأقولُ: كنْ يا موطني ورداً
يكنْ لنا في كل ثانيةٍ رحيقُ

2013/11/30م

إصدارات

سجلات السلب

بيروت - صدر حديثا عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية كتاب 'سجلات السلب: أملاك اللاجئين الفلسطينيين والصراع العربي-الاسرائيلي: دراسة في الارشيفات الرسمية والمراجع الدولية'، تأليف مايكل ر. فيشباخ، وقد ترجمه عن الانكليزية سميح حمودة، وراجع الترجمة باسم سرحان وشحاده موسى.

يركز هذا الكتاب المرجعي على مسألة املاك اللاجئين الفلسطينيين كقضية بحد ذاتها استنادا الى دراسة معمقة لمصادر اولية وارشيفات رسمية في ثلاث قارات، في كل من اسرائيل والاردن وبريطانيا والولايات المتحدة، وخصوصا-ولاول مرة- استنادا الى ملفات لجنة التوثيق الدولية وسجلاتها المودعة مقر الجمعية العامة للامم المتحدة في نيويورك. ويتناول الكتاب مصير هذه الاملاك في ظل المصادرة الاسرائيلية والنشاط الدولي والدبلوماسي بشأنها، وموقع هذه القضية في الصراع العربي-الاسرائيلي، وأثر الحروب العربية -الاسرائيلية فيها، ودور الولايات المتحدة في تهميشها. ويقدم المؤلف تقديراته الرصينة لحجم هذه الاملاك وقيمتها، اضافة الى آرائه في اسباب فشل المجتمع الدولي ومعاهدات السلم العربية- الاسرائيلية في تعويض اللاجئين عن هذه الاملاك، او اعادتها اليهم.

المؤلف

الأيام الباردة

الرباط -' :صدر للكاتب المغربي محمد غرناط رواية جديدة موسومة بـ' 'الأيام الباردة' عن دار الأمان بالرباط، طبعة أولى 2013، وتقع في 204 صفحة من القطع المتوسط .

ويذكر أن الكاتب صدر له في مجال الرواية: متاع الأبكم (2001) دوائر الساحل (2006) حلم بين جبلين (2008) تحت ضوء الليل (2010) وفي القصة القصيرة: سفر في أودية ملغومة (1978) الصابة والجراد (1988) داء الذئب (1996) الحزام الكبير (2003) هدنة غير معلنة (2007) خلف السور (2012).

نقرأ من الرواية الجديدة: 'لاحظ أن عينيها ترتجفان وهي تنظر إليه.هل هي صادقة، أم أنها تعد له كفنا كي تلفه فيه وتدفنه قبل الأوان؟ كان غنام قلقا مرتابا، فقد ظل يتفرس فيها وهي صامتة، وفجأة مال نحوها حتى لامس وجهها وهمس لها بنبرة ثابتة أن لاشيء يطاق من كلامها. ارتعدت واصفرت حتى اختفى الدم من وجهها كأنما أحست أنه يهددها، وبخفة قفزت من مكانها واتجهت إلى غرفة النوم لتقعد على حافة السرير وتنظر في صمت إلى أصابع قدميها العاريتين..'

مصادر الطاقة

صدر عن المركز القومي للترجمة بالقاهرة النسخة العربية من كتاب (مصادر الطاقة غير التقليدية) من تأليف د.س.شاوهاون وس ك سريفاستافا ومن ترجمة وتقديم عاطف يوسف محمود. ويقع في 539 صفحة من القطع الكبير، ومن خلال خمسة عشر فصلا؛ يستعرض الكتاب - بدايةً – مختلف أشكال الطاقة، مصنفا إياها إلى تجارية وغير تجارية، وتقليدية وغير تقليدية، ومتجدّدة وغير متجددة، ثم ينتهي إلى الحقيقة الحتمية الأسيفة، وهي وشك نفاد مصادر الطاقة من المصادر الأحفورية في صورها المختلفة، من فحم ونفط غاز طبيعي، نظراً لمحدودية احتياطيات العالم منها، ومن ثم حتمية اللجوء إلى بدائل الطاقة غير التقليدية التي لا تُستنفد، مثل الطاقة الشمسية وطاقة الرياح والمحيطات والطاقة الحيوية وغيرها.

ومن هنا كانت أهمية البحث عن مصادر بديلة وملائمة للطاقة، ومن ثمّ تنبع أهمية هذا الكتاب الذي يتقصى بالتحليل والتفصيل مصادر الطاقة غير التقليدية، ومدى جدوى استغلالها، ويومئ الكاتبان إلى ما تشير إليه تقارير منظمات التغذية والزراعة التابعة للأمم المتحدة عن استهلاك الطاقة على مستوى العالم، وعن الهوّة الشاسعة التي تفصل ما بين البلاد المتطورة صناعيًّاً وتلك النامية في هذا الشأن، حيث يصل استهلاك الفئة الأولى إلى نحو 66% من إجمالي الاستهلاك العالمي، في حين يصل تعداد ساكنيها إلى ما لا يربو على رُبع تعداد العالم، وذلك في مقابل اقتصار استهلاك الدول النامية التي تحتضن ثلاثة أرباع سكان المعمورة على 34% من ذلك الإجمالي.

مستودع أسرار البشر

وللأشجار أيضاً تاريخها وعواطفها. ولكنها قبل كل شيء، مصدر إلهام وتأمل للإنسان، منذ التاريخ القديم. والشجرة هي موضوع كتاب أستاذ التاريخ في جامعة السوربون، ألان كوربان، الذي يرى في الشجرة مصدر الانفعالات، منذ القديم وإلى الوقت الحالي، كما يقول العنوان الفرعي للكتاب. وعنوانه الأصلي: "لطافة الظل".

يصف المؤلف الشجرة، أنها مستودع أسرار البشر، الذين يتوجهون إليها ليبوحوا لها بما يعتمل في داخلهم. وكذا أنها المحاور النباتي والروحي. ويبحث كوربان في مضمون ما لدى قدماء المؤلفين والمفكرين، حول الموضوع، وفي خرافات وأساطير العصور الوسطى.

كما في روايات وأشعار المعاصرين من آثار العلاقات بين البشر والشجرة. والتوصيف الأساسي الذي يؤكد عليه المؤلف، بأشكال مختلفة، في هذا الكتاب، عن الشجرة هو أنها "طيّبة بالضرورة". ويرى فيها، كما يشير، ما كان الفيلسوف جان جاك روسّو قد رآه في الطبيعة بشكل عام.

ثم إن الشجرة تمثل نوعاً من "صلة الوصل" بين القبّة السماوية والعالم الأرضي. أما علاقة البشر بالشجرة، فيرى فيها المؤلف قدراً كبيراً من التناقض والمفارقات. هكذا مثلاً لم ير فيها أخصائيو النبات المسيحيون، خلال قرون عديدة، سوى أعضائها التي أثارت الاهتمام باعتبارها تشرأب نحو السماء.

وليس الجذور التي تتعمّق في الأرض، أو إلى ما يمكن أن يدل على الجحيم. وبهذا المعنى، ترمز أغصان بالنسبة لأولئك الأخصائيين، إلى التسامي والاقتراب من السماء. ويشرح المؤلف أن للجذور في الخيال المسيحي طبيعة سفلى يحيط بها الصمت والخفاء. وبالتالي توحي بـ"الرعب".

ويشير المؤلف في السياق، إلى شخصية تيلمارش، المتسوّل الذي رسمه فكتور هوغو، الذي كان يعيش في جذور شجرة ضخمة، ولا يبالي بالبشر وبعالمهم. ويصفه هوغو كأنه تجسيد للقوى الظلامية. وكذا الكاتب الأميركي دافيد تورو، رأى أن الجذور تتضمن رغبة تدفع نحو التوحش والانكفاء نحو عالم سلبي للحياة. أما الروائي البريطاني د. هـ. لورنس، فتحدث عن الطمع الهائل للجذور.

يركّز المؤلف في هذا العمل على حضور الشجرة في أعمال كتاب المفكرين والمبدعين والفنانين في جميع المشارب. هكذا يجد القارئ نفسه أحياناً بصحبة جوسلان، بطل أحد أعمال لامارتين وهو يردد: "كنت أتنقل من جذع شجرة إلى آخر، وأنا أطبع عليها كلّها القبلات".

وما يؤكده المؤلف، أن طقوس تقبيل جذوع الأشجار تمثل ممارسة عرفها التاريخ منذ القديم، منذ الطقوس الرومانية القديمة، وحتى تلك التي تمارس حالياً باسم حماية البيئة، ومروراً بـ"الورع المسيحي" حيال الشجرة. وبهذا المعنى بالتحديد يشدد المؤلف على أن للشجرة ولعلاقتها مع البشر، تاريخاً حقيقياً.

. إنها علاقة وثيقة كما يبدو من خلال الشهادات التي يقدمها المؤلف لهيزويد وفيرجيل وهوغو ودانتي ورونار، والمئات غيرهم ممن رأوا في الأشجار كائنات حية تحدّثوا معها، على اعتبار أنها تحمل قيمة رمزية كبيرة.

ويشرح المؤلف أن الشجرة كانت ترمز في العديد من الحضارات القديمة، إلى صورة البشر، وأحياناً الشيطان. وهكذا قدّم الرسّام جيروم بوش الأشجار في لوحته التي تحمل عنوان: "حديقة المتع"، وكأنها رموز للإغواء والإغراء.

ومهما يكن من أمر الأشجار، يرى المؤلف أنها تبدو خالدة بالمقارنة مع الإنسان. فهناك شجرة حور في ولاية "اوتاوا" يبلغ عمرها 90000 سنة، وشجرة سنديان في كاليفورنيا عمرها 13000 سنة.

وهكذا، يرى المؤلف أن "الأشجار تنتمي إلى زمن غير زمننا". وطول عمرها يرمز إلى قصر عمر البشر، إذ إنها تشهد مرور أجيال متعددة من بني الإنسان. والشجرة هي أيضاً شاهد صامت على التاريخ الإنساني، بل وعلى فترة ما قبل التاريخ.

المؤلف في سطور

يشغل ألان كوربان، مؤلف الكتاب، منصب أستاذ تاريخ فرنسا خلال القرن التاسع عشر في جامعة السوربون. من مؤلفاته: أرض الفراغ، أجراس الأرض، تاريخ المسيحية. كما أشرف على كتاب "تاريخ الجسد" - المؤلّف من ثلاثة أجزاء.

الكتاب: لطافة الظل.. الشجرة: مصدر الانفعالات منذ القديم حتى اليوم

تأليف: ألان كوربان-الناشر: فايار- باريس- 2013

- الصفحات: 348 صفحة-القطع: القطع: المتوسط.